

## شواهد التشبيه في الأربعين النووية

عبد الله محمد بلال\*

د. حافظ محمد بادشاه\*\*

### Abstract

There are many books of hadith named as collection of Forty Important hadith but the Al-Arbaeen Al-Navaviyah (الأربعين) is the one which has drawn much attention of *Ulamas* throughout the ages. The book has got distinction and fame among the circle of Scholars and common people for its comprehensive content and remarkable expression. Its writer name is Muhiyuddin yahya bin Sharf. He has been magnificent writer of the 8<sup>th</sup> century.

This research paper is about the examples of Simile (التشبيه) in Arbaeen Al-navaviyah. Here we have first of all given a brief introduction of the writer of Arbaeen Al-Navaviyah after which there is a summary of the content of the book. Following the literal and idiomatic meaning of Simils, we have explained Simile with examples from the book. There are actually four main types of

---

\* المحاضر بقسم اللغة العربية، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد.

\*\* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد.

Simils found in the mentioned book, namely:

1. Alttshbih Al-Mofrad
2. Alttshbih Al-Jama
3. Alttshbih Al-Baligh
4. Alttshbi Al-Tamsili.

All these types are explained with examples taken from the book Arbaeen Al Navaviyah. In the end there are the primary and secondary sources of the research.

Keywords: Hadith, Al-Ttshbih, Baligh, Tamsili.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده!  
إن الكتاب المسمى بالأربعين حديثاً للإمام الزاهد القدوة يحيى بن شرف النووي من تلك الكتب التي انتشرت في الشرق والغرب، وقطعت مئات السنين، واستنهضت هم العلماء فاعتنوا بها واحتفلوا فكتبوا عليها الشروح المتنوعة في مصادرها ومواردها لتنوع مشارب مؤلفيها وعقائدهم.

وقد تلقت الأمة هذه الأربعين بالقبول، وطبقت شهرتها الآفاق، واشتهر بها الإمام النووي رحمه الله، فلا تكاد تعرف إلا به (الأربعين النووية).  
وكثير من العلماء كتبوا واستنبطوا الأحكام الفقهية منها، لذا أردنا أن نقوم بدراسة بلاغية فاخترنا التشبيه وشواهدنا في الأربعين للنووي، فعنونا هذا البحث الموجز بـ "شواهد التشبيه في الأربعين النووية".

### أولاً: حياة الإمام النووي:

الإمام النووي هو محي الدين يحيى بن شرف بن مُري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام، المعروف بالإمام الحافظ، شيخ الإسلام، وكان ينادى في عصره بأبي زكريا، "وهي كنية له؛ لأنه لم يتزوج حتى عدّه بعضهم من العلماء العزاب الذين لم يتزوجوا؛ خوفاً من الانشغال عن العلم"<sup>(1)</sup>.

"واشتهر بالنووي أو النَّوَوِيُّ، نسبةً إلى نوا (من قرى حوران، بسورية) وهو منزل أيوب عليه السلام وبها قبر سام بن نوح"<sup>(2)</sup>.

ولد الإمام النووي في وسط شهر المحرم الحرام عام 631هـ، ولما بلغ تسعة عشر سنة من عمره سافر إلى دمشق والتحق بالمدرسة الرواحية ليتعلم منها<sup>(3)</sup>.  
 "وقد نفع الله المسلمين بتصانيفه العديدة على الرغم من قصر عمره، ومع ذلك ألف عدداً من الكتب، حتى اشتهرت وجلبت إلى الأمصار، منها: شرح صحيح مسلم، والروضة، والمنهاج، والرياض، والأذكار، والتبيان، وتحرير التنبية وتصحيحه، وتهذيب الأسماء، واللغات، وطبقات الفقهاء وأحاديث الأربعين النووية"<sup>(4)</sup>.

**ثانياً: التعريف بالكتاب أحاديث الأربعين النووية وسبب تأليفه:**

"لقد امتازت جميع مؤلفات النووي، بالضبط والتدقيق والتحقيق والإنصاف في عرض الأفكار والانتصار لرأي من الآراء"<sup>(5)</sup>، فلقد كان ينظر في حاجة الناس فيما يؤلف من كتب وفيما شرح من مطولات وفيما يوضح من أفكار، فكأنه ينظر بنور الله، فيصيب المقصود وينال القبول من العلماء قبل العامة، حتى عُدَّت كتبه أمهات للكتب في مختلف جوانب العلم، ينهل العلماء والطلاب منها فكانت مرجعاً لهم على مدار العصور"<sup>(6)</sup>. "ومن أعمال النووي هو جمعه لاثنتين وأربعين حديثاً، منها ستة وعشرون حديثاً أملاها عليه أستاذه الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح وأطلق عليها اسم الأحاديث الكلية لأنها من جوامع كلمه ﷺ، ثم أخذ هذه الأحاديث ليزيد عليها ستة عشر حديثاً لتكتمل إلى اثنتين وأربعين حديثاً، وسمى كتابه بالأربعين"<sup>(7)</sup>.

اشتهرت هذه الأربعين بـ " النووية" نسبة لموطن جامعها ﷺ، وأما هو فقد سماها " الأربعين في مباني الإسلام وقواعد الأحكام". وأجاب المدابغي في حاشيته على (الفتح المبين بشرح الأربعين) على سؤال لماذا اشتهرت بالأربعين مع أن عددها اثنان وأربعون حديثاً؟ حيث يقول: "هو من باب تسمية الكل باسم

الجزء، فلا يقال قد اشتمل على اثنين وأربعين حديثاً، وإن السابع والعشرين منها مشتمل على حديثين لاشتمالهما على معنى واحد، وإن المراد الكتاب المسمى بالأربعين فتكون الأربعين علماً على المتن كله فيشملة جميع ما ذكر والخطبة وما بعدها من سبب التأليف فإنه لا شك من مسمى الكتاب وإن لم يكن من الأحاديث المعدودة، ولا يناهني هذا الثاني المراد منه<sup>(8)</sup>

أفصح المؤلف الإمام النووي رحمته الله عن سبب تأليفها فقال: "وقد صنف العلماء رحمهم الله في هذا الباب ما لا يحصى من المصنفات، فأول من علمته صنف فيه عبدالله بن المبارك، ثم محمد بن أسلم الطوسي، - إلى أن قال - وقد استخرت تعالى في جمع أربعين حديثاً، اقتداءً بالأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام"<sup>(9)</sup>، وهو يقصد بذلك أصحاب الأربعين حديثاً، متأثرين بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يرويه لنا أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ حَقَّظَ عَلَيَّ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنْ أَمْرِ دِينِهَا بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ"<sup>(10)</sup>. واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف ومع هذا فإن العلماء قد أجازوا العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال<sup>(11)</sup>، هذا وإن النووي لم يعتمد على هذا الحديث، وقد أشار بذلك، بقوله: "فليس اعتمادي على هذا الحديث، بل على قوله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة: "ليبلغ الشاهد منكم الغائب"<sup>(12)</sup>. وقوله صلى الله عليه وسلم: "نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها"<sup>(13)</sup>.

#### منهجه

أشار إلى ذلك في مقدمته بقوله: "وألتزم في هذه الأربعين أن تكون صحيحة ومعظمها في صحيح البخاري ومسلم، وأذكرها محذوفة الأسانيد ليسهل حفظها، ويعم الانتفاع بها - إن شاء الله - ثم أتبعها بباب في ضبط خفي ألفاظها"<sup>(14)</sup> فشروطه رحمته الله هي: "أن تكون صحيحة، ومعظمها في الصحيحين، وذكرها محذوفة الإسناد، وأن يتبعها بباب في ضبط خفي ألفاظها"<sup>(15)</sup>.

**ثالثاً : التشبيه**

التشبيه لغةً: إن التشبيه هي المماثلة، كما يكتب ابن منظور في لسان العرب: "أن الشَّبَه والشَّبَه والشَّبِيه، المثلُّ، وأشبه الشيءُ الشيءَ، ماثلهُ، والجمع أشباه"<sup>(16)</sup>. التشبيه اصطلاحاً: للتشبيه مفاهيم عدّة، وهي وإن اختلفت لفظاً؛ إلا أنها متفقة معنيً، وأشهر هذه المفاهيم جرياً على اللسان أنه: "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معني"<sup>(17)</sup>، أو أكثر من المعاني. "فَحَدُّ التشبيه أن تُثبت للمشبّه حُكماً من أحكام المشبه به قصداً للمبالغة"<sup>(18)</sup>.

ولا شك أن للتشبيه أثراً عظيماً في التعبير عن المعاني، ونقل الأفكار وإمتاع النفوس بالصور والأخيلة، وفخامة أمره في فنون البلاغة، وتقريب الكلام إلى الأذهان والسُّمو به من أرض الواقع إلى فضاء الخيال<sup>(19)</sup>. فلما كان الرسول ﷺ مبعوثاً لحمل رسالة عامة للأمم، تعزز بفصاحتها وبلاغتها، اعتمد الوسائل الفنية في البيان، وخصوصاً التشبيه، لكونه من أبرز وسائل الإيضاح والتأثير في نفوس المخاطبين، يلائم فيه مقتضى الحال في مهمته الإبلاغية والتعليمية؛ لذلك كثر في أحاديث الكتاب (الأربعين النووية)، فالناظر في تلك الأحاديث، يجد أنه قد ورد في ثلاثة عشر موضعاً. وقد اعتمدنا مبدأ الانتقاء من تلك المواضع، لنحيل الأخرى في جدول إحصائي لها، آخذين بنظر الاعتبار، منهج البلاغيين في تقسيمهم له، فاعتمدنا التسلسل نفسه كما يأتي:

- 1 . التشبيه المفرد .
- 2 . تشبيه الجمع .
- 3 . التشبيه البليغ .
- 4 . التشبيه التمثيلي .

**1 . التشبيه المفرد**

وهو ما كان طرفاه مفردين، "إذ ينتج من تشبيه شيءٍ واحدٍ بشيءٍ واحد، وذلك بأن تقصد نفس تلك الحقيقة المجردة مع قطع النظر إلى غيرها"<sup>(20)</sup>.

وقد ورد هذا النوع من التشبيه في موضعين من أحاديث الكتاب، وقد اخترنا أحدهما للدراسة إذ نطالعه بسؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ عن الإحسان فأجابه: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ" (21).

قبل البدء بدراسة التشبيه النبوي، يجدر بنا أولاً أن نعرف ما المراد بالإحسان والآراء التي قيلت عنه. إذ جاء في لسان العرب، أن الإحسان: "ضد الأساءة" (22). وهو مصدر، تقول: أحسن يُحسن إحساناً، وأحسننت العمل إذا أتقنته (23). وقيل أيضاً، أن الإحسان: هو "التحقق بالعبودية على مشاهدة الربوبية بنور البصيرة" (24). فلما كان التشبيه هو فتح باب على المجهول من خلال المعلوم (25)، نلاحظ أن الرسول ﷺ عقد لنا معادلة تشبيهية تجسد لنا أمراً معنوياً وهو الاحسان الذي هو الاخلاص في نية العبادة (26)، لينقل السامع عبر مشبه به محسوس ومعلوم، مبتدئاً بأداة تفيد التأكيد: "أن" مستخدماً ما يدل على حضور وتجدد العبادة بفعل المضارع: "تعبد"، الذي جاء منسجماً ومتناسقاً مع الحديث. ولعل تأويل التشبيه "بأن تعبد الله مشبهاً بمن يراه" (27) هو أمر مردود؛ لأن الإنسان بطبيعته البشرية، لا يستطيع رؤية الله تبارك وتعالى، "فهو يراه يقيناً ولا يراه حقيقة ولهذا قال: "كأنك تراه" (28).

فضلاً عن أن الرسول ﷺ، قد أحسن اختيار أداة التشبيه: "كأن" من بين أدوات التشبيه الأخرى، لأنها تمنع رؤية الله تعالى. وهكذا يتضح لنا أن الرسول ﷺ والله أعلم بالمراد. قد قصد من رؤية الله هنا الرؤية العقلية وليست البصرية، فليس هناك إنسان يرى الله تبارك وتعالى، أمام عينيه حتى نشبه آخر به. وهذا ما يذكرنا بطلب موسى عليه السلام برؤية الله تعالى كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ (29)، فأجابه إجابة قاطعة بأنه لن يستطيع ذلك. وعليه يكون تقدير جملة التشبيه: "الإحسان عبادتك الله تعالى حال كونك في عبادتك، مثل حال كونك راثياً له، وهذا التقدير أحسن وأقرب للمعنى... (30). والرسول ﷺ عندما أحسن أن هناك مَنْ يفتقد لمرتبة الإحسان الأولى المستنبطة من

جملة التشبيه، هبط إلى المرتبة الثانية بإستخدامه جملة الشرط، فهناك مَنْ يعبد الله لا لكونه يراه يقيناً، بل لكونه مراقباً منه، مطلعاً عليه في السر والعلانية.

## 2 . تشبيه الجمع

"هو تعدد المشبه به دون المشبه"<sup>(31)</sup>، ويمكن أن يُعدَّ هذا النوع من التشبيه، مظهراً من مظاهر الاستيعاب والتقصي لعناصر المشابهة، فضلاً عن قوة الملاحظة والبراعة في الجمع بين الأشياء المناسبة والقدرة على نظمها في سلك قصير<sup>(32)</sup>.

ولابدَّ من الإشارة، بأن تشبيه الجمع، لم يرد إلا في موضع واحد من أحاديث الكتاب، نطالعه فيما يرويه لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرٌ سبيلٍ"<sup>(33)</sup>.  
 لنبدأ برواية الحديث وما تشير له لنا دلالة أخذ المنكب من شدة اتصال الرسول ﷺ بالمخاطب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما تعبيراً عن المحبة والمودة القائمة بينهما "وهكذا عادته صلوات الله عليه في مؤانسة جلسائه"<sup>(34)</sup>.  
 فالحديث النبوي، يرسم لنا بالصورة والكلمة الدنيا وحال المقيم فيها، مبتدئاً بفعل الأمر: " كن " الذي أضفى على الحديث، إيقاعاً بنبرة شديدة، يهجم على القلب فيهزه هزاً عنيفاً، يجعل السامع أكثر انتباهاً ومتشوقاً في الوقت نفسه "لمعرفة مفعول "كُنْ" الذي يأتي تشبيهاً"<sup>(35)</sup>، للدنيا والواقع جملة لمقول القول المتكونة من "كأنك غريب أو عابرٌ سبيلٍ".

ولنقف متأملين لتلك الجملة التي احتضنت طرفي المشبه بهم، وما لها من دلالات نفسية، فالغريب: "هو البعيد عن وطنه، وهو النفي من البلد"<sup>(36)</sup>.  
 والرسول ﷺ، عندما أحسَّ أن الغريب، قد يسكن دار الغربة، أعقب الحديث بمشبه به ثانٍ وهو عابر السبيل " وهو المسافر الذي انقطع به وهو يريد الرجوع إلى بلده، ولا يجد ما يتبلغ به، فله في الصدقات، نصيب"<sup>(37)</sup>. فالعبور لا يستلزم الغربة والمبالغة فيه أكثر، ولأن تعلقاته أقل من تعلقات الغربة، فعابر السبيل يكون

قاصداً للبلد الشاسع، وبينه وبينها أودية مهلكة، فهل له أن يقيم لحظة أو يسكن لحظة؟ والتقدير حينئذٍ يكون: بل كن كأنك عابر السبيل وليس كالغريب<sup>(38)</sup>.

ويبدو لنا أن الجامع ما بين المشبه (الإنسان) والمشبه بهما (غريب وعابر سبيل) هو عدم التعلق بالدنيا إلى درجة الاغترار بها ونسيان الآخرة التي هي الأولى بالتعلق بها.

أما إذا لم يجد مصدر رزقٍ، رجع إلى موطنه خائباً، فكذلك الدنيا، يجب أن تكون مصدر رزقٍ للآخرة ولكن ليس بالمال بل بالأعمال الصالحة والتزود بالتقوى فهي طريق موصل للآخرة التي تنتظرنا، إلا أن الفرق ما بين تلك الحالتين، أن المسافر يعلم كم مضى من وقته وكم يبقى له للرجوع، فذلك أمر متروك له، أما الإنسان في الدنيا فيعرف كم مضى من عمره لكنه لا يعرف كم بقي منه فذلك أمر متروك لله وحده، لذلك كان هذا الحديث جديراً بأن يطلق عليه اسم "قصر الأمل"<sup>(39)</sup>.

### 3. التشبيه البليغ

تشبيه، يحذف فيه وجه الشبه والأداة<sup>(40)</sup>، وبلاغة هذا التشبيه، تقتضي الاختصار من جهة والتأمل والتأويل في إيجاد معنى يناسب فيه وجه الشبه المحذوف؛ من جهة أخرى لذا سُمِّي بليغاً، وهو من أعلى مراتب التشبيه بلاغةً عند السكاكي<sup>(41)</sup>.

وقد ورد هذا النوع من التشبيه في ستة مواضع من أحاديث الكتاب. وسنختار حديثاً للدراسة، يرويه لنا الحارث بن عاصم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ"<sup>(42)</sup>.

فقوله ﷺ: "الصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ" تشبيه بليغ حذف فيه وجه الشبه والأداة، مما جعل المشبه والمشبه به متساويين متحدتين، فلا حدود

أو فواصل تفصلهما. وهذا ما يفسح المجال أمام المتلقي؛ لبحث عن الصفات المشتركة التي تربط المشبه بالمشبه به، فلما كان النور يهدي الإنسان إلى طريق الصواب، فيجنبه الوقوع في عثرات الطريق، فكذلك الصلاة فهي تهدي الإنسان إلى الطريق المستقيم وتجنبه عثرات الشياطين، ولما كانت الصلاة هي: "سبب لإشراق أنوار المعارف، وانسراح القلب، ومكاشفات الحقائق، لفراغ القلب فيها، وإقباله على الله ظاهراً وباطناً"<sup>(43)</sup>، شَبَّهت بالنور مبالغة في التشبيه. ولما كان البرهان هو الحجة الفاصلة القاطعة لِلدِّدِ الخِصْمِ<sup>(44)</sup> يثبت بها براءته أمام القاضي وقت مُحَاكَمَتِهِ، فتنجيه من العقاب، فكذلك الصدقة هي حجة و"دليل على صحة إيمان صاحبها"<sup>(45)</sup> أمام الله يوم القيامة، فتنجيه من عذاب النار، "فإذا سُئِلَ العبد يوم القيامة عن مصرف ماله، كانت صدقاته، كبراهين له في الجواب"<sup>(46)</sup>. وقيل أيضاً أن الصدقة تؤسم المتصدق بسيماء يعرف بها، فتكون برهان، فلا يسأل عن المصرف<sup>(47)</sup>، ولما كان الصبر يعني الحبس وهو نقيض الجزع<sup>(48)</sup>، وهو بلا شك شاق مؤلم لصاحبه حتى نجده قد قدم على الصلاة في القرآن الكريم؛ لعظم أجره وثوابه عند الله تبارك وتعالى كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾<sup>(49)</sup> فأراد الرسول ﷺ أن يشبّههُ بالضياء "لأن الصبر، به تنجلي المصائب والكربات، وتنكشف كما إن للضياء ضوء يكشف الأشياء ويبينها.

وتتضح بلاغة التشبيه النبوي، باختياره النور والضياء، لأنهما يقعان على الابصار في كل زمان ومكان، وهذا ما أكد عليه عبد القاهر الجرجاني عندما قال: "إنَّ مما يقتضي كون الشيء على الذكر وثبوت صورته في النفس أن يكثر دورانه على العيون، ويدوم تردُّدُهُ في مواقع الأبصار وأن تدركه الحواس في كل وقت أو في أغلب الأوقات..."<sup>(50)</sup>.

وقد ورد التشبيه البليغ أيضاً في قوله ﷺ: "الصُّومُ حُنَّةٌ"<sup>(51)</sup>، خطاباً لمعاذ

رضي الله عنه عندما سأله عن أبواب الخير.

إذ نلاحظ أن هذا التشبيه، لا يختلف ببنيته التركيبية عن بنية التشبيه السابق من حيث صياغته بجملة اسمية متكونة من مبتدأ وخبر، تفيد الثبوت والدوام في الأحكام المستنبطة منها. فالرسول ﷺ، أراد أن يبين لمعاذ، فضيلة الصوم والمزايا التي يتمتع بها الصائم، فشبّه بالجنة والتي تعني في اللغة: السترة<sup>(52)</sup>، ومما يعزز بلاغة هذا التشبيه، هو حذف أداتِهِ، فكان من الممكن أن يقول ﷺ: الصوم كالجنة، ولكن حذف الأداة، أبلغ، إذ يجعل المشبه عين المشبه به، ومن ثم يتيح للطرف الثاني من التشبيه، أن يأتي أشهر من الأولى وأقوى إثارة في النفس<sup>(53)</sup>. فضلاً عن أن حذف وجه الشبه منه، قد فتح باب التأويل على المتلقي في إيجاد جامع يجمع الصوم بالجنة. فلما كانت الجنة، هي السترة، كأن يستتر بها الجندي في المعركة لصد العدو ومنع ضرباته فهي حصن منيع له، فكذلك الصوم سلاح صاحبه الجوع وهو حصن منيع له من سهام الشيطان ومعاصيه، ممّا يحول دخول الشيطان إلى مجاري الدم؛ لقوله ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مَجْرَى الدَّمِّ مِنْ ابْنِ آدَمَ"<sup>(54)</sup>. فالجامع إذن ما بين الصوم والجنة هو "منع من إصابة المكروه، إذ التقدير: الصوم كجنة في الوقاية"<sup>(55)</sup>.

#### 4. التشبيه التمثيلي

وهو ما كان وجه الشبه فيه مركباً أو منتزِعاً من أمور متعددة، حسيّاً أو عقليّاً، وهو ما ذهب إليه الخطيب القزويني وجمهور البلاغيين، إذ أنهم لا يشترطون في التشبيه التمثيلي غير الوجه، وهذا هو المذهب المشهور<sup>(56)</sup>. والناظر في أحاديث الكتاب يجد أن نصيب هذا النوع من التشبيه قد ورد في أربعة مواضع من تلك الأحاديث، وسنختار ثلاثة منها للدراسة.

فمن وسائل الإيضاح التي يتذرع بها المعلم لتقرير دراسته، بما لا يدع للتلميذ مجالاً للنسيان، أن يسلك مسلك التشبيه التمثيلي<sup>(57)</sup>. وهذا ما كان يسلكه صلوات الله عليه أمام أصحابه لتقرير مبادئ الشريعة الإسلامية.

ولنبداً دراستنا لهذا النوع من التشبيه، بحديث عظيم، عُدَّ من جوامع كلمه ﷺ، وأحد الأحاديث الذي عليه مدار الإسلام، كما يقول الطيبي<sup>(58)</sup>، إذ نطالعه فيما يرويه لنا أبو عبد الله بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ. أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مَضْعَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"<sup>(59)</sup>.

فالرسول ﷺ، يحدثنا في هذا الحديث بأوجز لفظ وأبين عبارة عن المعنى الذي يريد توصيله للسامعين، مستخدماً ما يؤكد كلامه ويقرِّره عن طريق حرف التوكيد (إِنَّ) الذي جاء مُكْرَرًا ومنسجماً في جمل متناسقة أخذت أطراف بعضها البعض، فـ "الحلال والحرام إما بَيِّنٌ لا خلافَ فيه عند العلماء، وإما أن يكون خافياً يتحاذبه وجوه التأويلات، فكل منهم يذهب فيه مذهباً"<sup>(60)</sup>؛ لذا عرف علماء اللغة، "المشتبهات" بالمشكلات والمتماثلات<sup>(61)</sup> في الأمور لتشابهها، فيجب على المسلم، أن يكون يقظاً في التعامل معها. ولنركز على هذا القول الذي أخذ طرف المشبه من التشبيه؛ لنلحظ فيما بعد ما العلاقة التي تربطه مع المشبه به.

فمن الملاحظ إنَّ الرسول ﷺ، لم يقل: لا يعلمها جميع الناس؛ وإنما قال لا يعلمها كثير من الناس؛ وذلك لأنَّ بعض الناس من يعرفها، ألا وهم العلماء، إما بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك، فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمه، ولم يكن فيه نص ولا اجتماع، اجتهد المجتهد، فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي، فإذا ألحقه به صار حلالاً، وقد يكون دليله غير خالٍ عن الاحتمال البيِّن، فيكون الورع تركه، ويكون داخلاً في قوله ﷺ: "فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه"، "أي: حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعي، وصان

عرضه عن كلام الناس فيه<sup>(62)</sup>، وإنما عطف العرض على الدين؛ "ليفيد أن طلب براءته منظور إليه كالدين"<sup>(63)</sup>.

أما قوله ﷺ: "فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام"، فقد قيل أنه يحتمل وجهين:

الأول: أنه "من كثرة تعاطيه الشبهات؛ يصادف الحرام، وإن لم يتعمده، وقد يَأْثَمُ بذلك إذا نُسِبَ إلى تقصير"<sup>(64)</sup>.

الثاني: قول الشريف الرضي: "أنه يريد به التحذير من الالمام بشيء من صغائر الذنوب لئلا يكون مجرياً على الوقوع في كبائرهما والتهويل في مكاضمهما..."<sup>(65)</sup>. فالمعاصي يريد الكفر، أي تسوق إليه.

فالرسول ﷺ لم يكتف ببيان تلك الأمور المعنوية التي يريد توصيلها إلى السامعين، بل أراد ان يُجَسِّم تلك الأمور بلفظ وجيز قريب لأذهان الجالسين معه، لا سيما وإن هذا اللفظ جاء مستقاة من حياة المخاطبين الرعوية الذين كانوا يعرفون أوصاف الراحلة. بقوله ﷺ: "كالراعي يرعى حول الحمى" وهي جملة مستأنفة وردت على طريقة التمثيل للتبنيه بالشاهد على الغائب، وقوله "كراع"، خبر مبتدأ محذوف تقديره: مثله كراع<sup>(66)</sup>.

وهنا تكمن بلاغة التمثيل التي كما يراها الإمام عبد القاهر الجرجاني "في أنه يجيء في أعقاب المعاني، فيضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعوة القلوب لها..."<sup>(67)</sup>.

فالرسول ﷺ، "كان معلماً لأصحابه ومربياً، وقد سبق في تعليمه لهم أحدث ما توصل إليه علماء التربية الحديثة من طرق ووسائل، فهو يغتنم الفرص والمناسبات ويضرب لهم الأمثال، وينقل لهم المعنى المجرد إلى محسوس ومشاهد ويتخولهم بالموعظة ويخاطبهم بما تقتضيه حاجتهم وتدركه..."<sup>(68)</sup>.

والتمثيل بالرعي حول الحمى نكتة وهي "أن ملوك العرب تحمي مراعي لمواشيها، وتتوعد على من يقرها بالعقوبة الشديدة، والخائف من عقوبة السلطان

يبعد بماشيته خوف الوقوع، وغير الخائف يقرب منها ويرعى في جوانبها، فلا يأمن من أن يقع فيها من غير اختياره، فيعاقب على ذلك" (69).

ويبدو لنا أن وجه الشبه الحاصل ما بين المشتبهات من الأمور والرعي حول الحمى هو قوله ﷺ: "ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه". فكما أن الراعي إذا جرَّه رعيه حول الملوك، استحق العقوبة بسبب ذلك، فكذلك من يقرب حدود الله التي حدّها لهم من امتثال أوامره واجتناب نواهيه، لأن الحد: "هو النهاية، التي إذا بلغها المحدود له امتنع" (70)، فمن أكثر المشتبهات وتعرض لمقدماتها وَقَعَ في الحرام، فاستحق العقوبة بسبب ذلك. ثم يختم الرسول ﷺ حديثه بجملة شديدة الصلة بجملة التشبيه، عبّر عنها بأسلوب الاستعارة.

وقد ورد التشبيه التمثيلي أيضاً، في قوله ﷺ: "الصدقة تُطفئ الخطيئة، كما يُطفئ الماء النار" (71)، فمن أبواب الخير التي يقررها الرسول ﷺ: "الصدقة" وهي نوع من أنواع التكافل الاجتماعي، يساعد الإنسان الغني بها، الإنسان الفقير المحتاج لها.

ولما كان الإنسان، دائم التعرض لمعاصي الشيطان، جعل الله لنا ما يمحو تلك المعاصي، عن طريق الصدقة، لا سيما وإنّ اقتران حكم ذهاب الخطيئة بالفعل المضارع: "تطفئ" قد جعل ذهابها متحققاً ومتجدداً كلما أعطيت الصدقة. الرسول ﷺ عندما أراد أن يجسد لنا ذلك المعنى، استخدم تصوير مقنع، يعمل على هزّ شعور المتلقي، عبر ضرب المثل بالماء والنار، وهو مثل يضرب في تنافي الشيعين (72). فقال الطيبي: "أنه من التشبيه الواقع على التمثيل، شبهت الحالة المتوهمة للصدقة الموجبة لإذهاب الخطيئة، بحالة الماء المطفئ للنار..." (73).

فوجه الشبه يتضح من خلال الجامع الذي يجمع ما بين أطراف التشبيه، وهو حصول الإطفاء، بجامع المقصود، فكما أن الماء يطفئ النار ولا يبقى منه شيئاً، فكذلك الصدقة، تمحو خطايا الإنسان ولا تبقى منها شيئاً. وهذا سر بلاغة

التشبيه التمثيلي عندما جعل الخطيئة في الدنيا، تحرق صاحبها يوم القيامة، ولا يطفئها إلاّ ضدها عن طريق الصدقة.

وهذا ختام طرف من حديث يرويه لنا الرسول ﷺ عن ربه في الحديث القدسي، نَحْتَمُّ بِهِ دَرَاثِنَا لِهَذَا الْمَبْحَثِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: "يَاعِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ"<sup>(74)</sup>.

ولنقف وقفة المتأمل الذي يقرأ هذه الكلمات الربانية وكيف عبّر الله تعالى عن تلك المعاني الروحية والخطرات النفسية التي تجسدت في صور وأشكال يعانق بعضها البعض، تحضيراً لنسق الصورة التمثيلية، مُبتدئاً بأسلوب النداء، مُقيداً "السؤال بالاجتماع في مقام واحد لأنّ تراحم السؤال وازدحامهم مما يدهش المسؤول ويبهته، ويعسر عليه إنجاح مآربهم، والاسعاف إلى مطالبهم..."<sup>(75)</sup>. مُصَوِّراً " عدد السائلين وهم الخلق جميعاً منذ بداية الخليقة إلى أن تقوم الساعة..."<sup>(76)</sup>. مستخدماً أداة من أدوات التشبيه التي تتناسب مع سياق النص وهي الكاف التي "من خصائصها أنها تجعل البعيد قريباً، والأدنى منزلةً مرتفعاً إلى منزلة الأعلى..."<sup>(77)</sup> مشبهاً في الهيئة الحاصلة من ادخال الأبرة في البحر. آخذاً بنظر الاعتبار، ما توحى لنا دلالة البحر والأبرة من معانٍ عديدة منها:

1. قال ابن منظور: "سمي البحر ببحراً، لاستبحاره، وهو انبساطه وسعته"<sup>(78)</sup>.
2. أنه غالباً ما يُضرب به المثل للرجل الجواد والكريم في الخيال العربي<sup>(79)</sup>.
3. أن البحر هو " جزء من الوجود الذي يحياه الإنسان حيث يكون"<sup>(80)</sup>.
4. والبحر غالباً ما يُضرب به المثل بعظمته وعلو شأنه وبصورته المحببة للنفوس<sup>(81)</sup>.

ويتضح لنا مما سبق أن البحر، غالباً ما يُضرب به المثل بالكثرة لأنه أكبر المراتب وجوداً على الأرض مقارنةً بالإبرة التي غالباً ما يُضرب فيها المثل بالقلة.

أما وجه الشبه الذي يجمع ما بين المشبه وهو أسئلة الخلق جميعاً إنساً وحنّاً، والمشبه به وهو الهيئة الحاصلة في إدخال الأبرة البحر. فهو عدم النقص لكلتا الحالتين، فلو نتخيل أنفسنا ونحن ندخل الأبرة الملساء التي لا يستقر فيها الماء، في البحر الذي أحاط الكرة الأرضية، فماذا ينقص منه؟ إنه لا يكاد ينقص منه شيئاً، فكذلك الله تبارك وتعالى، دائم العطاء، كثير الرزق في الليل والنهار، لا يتوقف عطاؤه ولا ينقطع رزقه، قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾<sup>(82)</sup>؛ "فخزائن الله لا تنفد، والإنسان يمسك عادةً عن الإنفاق خشية النفاد"<sup>(83)</sup>، لذلك قال النووي: "إنّ ما عند الله لا يدخله نقص، وإنما يدخل النقص المحدود الفاني"<sup>(84)</sup>.

تلك هي بلاغة التشبيه التمثيلي، خصوصاً وأن الأمثال قد جاءت مستمدة من ظواهر الطبيعة. وهذا ما أكده البلاغيون عندما انتبهوا إلى أن صور التشبيه المستمدة من عناصر كونية أو نفسية عامة يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة المتذوقين، إنما تكون من العناصر التي هي أحفظ لبقائها وحيويتها، وتأثيرها في أجيال الناس والأمم<sup>(85)</sup>.

## الهوامش والمصادر

1. "العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية الرياض"، 1983م، ص/ 92.
2. "الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين"، بيروت، ج/9، ص/185.
3. "فوات الوفيات، محمد بن شاکر الکتبي، تحقیق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان"، 1974م. ج/4، ص/264.
4. نفس المصدر
5. البيان في شرح الأربعين النووية، خالد البيطار، مكتبة المنار، 1987م، ص/ 15.
6. نفس المرجع.
7. "جامع العلوم والحکم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي، تحقیق: عماد زكي، المكتبة التوفيقية"، 2000م، ص/ 13.
8. نسخة خطية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض برقم: (1268) في (295 ق)، نقلت الإحالة من كتاب إتحاف الأنام، ص/85. نقلا من علم الأربعينات والأربعين، لأبي معاذ ظافر بن حسن آل جبعان. ص/24
9. نفس المرجع، ص/8.
10. "سنن البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقیق: محمد السعيد زغلول، الطبعة الأولى، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان"، 2000م، ح/1725.
11. "شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النووية، يحيى ابن شرف النووي"، ط/1، ص/8.
12. مسند الإمام أحمد، تحقیق: محي الدّین عبد الحمید، طبعة بيت الأذکار الدولية، الطبعة الأولى، 2001م، ح/15942.
13. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، الطبعة الأولى، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000م، ح/2658.
14. علم الأربعينات والأربعين، ص/27
15. نفس المرجع

16. لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، دار بيروت للطباعة، 1956م، ج/13، ص/503.
17. الإيضاح في علوم البلاغة "المعاني والبيان والبديع"، الخطيب القزويني، دار إحياء العلوم، ص/120.
18. جواهر الكنز "تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة"، نجم الدين أحمد ابن اسماعيل بن الأثير الحلبي، الناشر: منشأة المعارف بالأسكندرية، ص/55.
19. علم اساليب البيان، د. غازي يموت، الطبعة 1، دار الأصالة، بيروت، 1983م، ص/183.
20. البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب ود. كامل حسن البصير، الطبعة الثانية، 1999م، ص/293.
21. "الأربعون النووية، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار المنهاج للنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، الطبعة: الأولى"، 1430 هـ/2009م، عدد الأجزاء: 1، رقم الحديث: الثاني.
22. لسان العرب، ابن منظور: 117/13.
23. فتح البارئ شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الطبعة 3، دار السلام، الرياض، 2000م، ج/1، ص/159.
24. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، 2002م، ص/19.
25. من أساليب البيان في القرآن الكريم، محمد علي أبو حمدة، ط/2، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، 1983م، ص/56.
26. "صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، المسمى: "المنهاج شرح الجامع الصحيح"، ط/2، دار العلوم الإنسانية، دمشق، حلبوني"، 1424 هـ/2003 م، ج/7، ص/158.
27. شرح الكرماني، المسمى بـ (الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري)، الكرماني، الطبعة 1، المطبعة المصرية، 1354 هـ/1935م، ج/1، ص/196.
28. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص/19.
29. سورة الأعراف، رقم الآية/43.
30. عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري، بدر الدين أبي محمد محمود العيني، الطبعة 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421 هـ/2001م، ج/1، ص/445.
31. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1987م، ج/2، ص/188.

32. فن التشبيه "بلاغة، أدب، نقد"، علي الجندي، ط/2، مكتبة نهضة مصر، 1952م، ج/2، ص/147.
33. "الأربعون النووية"، ح/40.
34. من كنوز السنة دراسات أدبية ولغوية في الحديث النبوي، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، ص/60.
35. التشبيه في الحديث الشريف "دراسة في متن صحيح البخاري"، سعد عبد الرحيم، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل، بإشراف: د. هناء محمود شهاب، 1998م، ص/130.
36. لسان العرب، ابن منظور، ج/1، ص/639.
37. نفس المصدر، ج/1، ص/639.
38. "شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى "الكاشف عن حقائق السنن"، شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي"، ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج/3، ص/341.
39. ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد العسقلاني، ط/1، 1996م، ج/13، ص/416.
40. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج/2، ص/180.
41. مفتاح العلوم، أبو يعقوب علي السكاكي، ط/1، مطبعة دار الرسالة، بغداد، 1982م، ص/584.
42. "الأربعون النووية"، ح/23.
43. "شرح الطيبي على مشكاة المصابيح"، ج/2، ص/4.
44. لسان العرب، ابن منظور، ج/13، ص/51.
45. نفس المصدر
46. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، ج/1، ص/405.
47. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ج/2، ص/4.
48. لسان العرب، ابن منظور، ج/4، ص/438.
49. سورة البقرة، رقم الآية/5.
50. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع. ص/143.
51. الأربعون النووية، ح/29.

52. "الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري"، ط/2، دار العلم للملايين: ج/5، ص/2094
53. الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطوان غطاس محرم، دار الكشاف، بيروت، 1949، ص/160-161.
54. الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي أبو عبد الله، الناشر، دار ابن حزم، بيروت، ط/2، 2002م، ح/2130.
55. التبيان في البيان، شرف الدين بن محمد بن عبد الله الطيبي، ط/1، ذات السلاسل للطباعة والنشر. الكويت، 1986، ص/442.
56. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج/2، ص/185.
57. الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د. كمال عز الدين، الطبعة 1، دار اقرأ بيروت، ص/155.
58. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ج/6، ص/7.
59. صحيح البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، الطبعة 1، مكتبة الصفا، 2003م، ح/52.
60. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، ط/1، مكتبة نهضة مصر، ج/2، ص/134.
61. لسان العرب، ج/13، ص/503.
62. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، ج/3، ص/1648.
63. فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة عبد الرؤوف المناوي، ط/1، مطبعة مصطفى محمد، ج/3، ص/563.
64. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، ج/3، ص/1649.
65. المحازات النبوية، الشريف الرضي، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1967م، ص/270.
66. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ج/1، ص/170.
67. أسرار البلاغة، ص/93.
68. www.islamicstart.org
69. عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري، ج/1، ص/468.
70. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي البحاي، دار الفكر العربي، ج/2، ص/143.

71. الأربعون النووية، ح/29.
72. أسرار البلاغة، ص/106.
73. التبيان في البيان، شرف الدين بن محمد بن عبد الله الطيبي، ص/442.
74. الأربعون النووية، ح/24.
75. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ج/5، ص/103.
76. التصوير الفني في الحديث النبوي الشريف، محمد لطفي الصباغ، الطبعة 1، المكتب الإسلامي، 1983م. ص/100.
77. الصورة البيانية في الحديث الشريف، محمد لطفي الصباغ، ص/113.
78. لسان العرب، ج/7، ص/43.
79. البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، الطبعة 2، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة الرسالة، 1958م، ص/274.
80. التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، محمد أبو موسى، الطبعة 2، دار التضامن للطباعة، 1980م، ص/51.
81. البحر في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري، صالح محمود محمد، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية التربية جامعة الموصل، بإشراف: د. نزهة جعفر حسن، 2001م. ص/22.
82. سورة النحل، رقم الآية/96.
83. النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973م. ص/231.
84. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، ج/5، ص/2522.
85. التصوير البياني، ص/157-158.